مصادر الشعر الجاهلي

المعلقات : قصائد طوال جياد ، اختيرت من أحسن الشعر الجاهلي ، قوة ومتانة وجمال أسلوب ، فهي الصورة الناضجة الكاملة التي انتهت اليها تجارب الجاهليين في التعبير الأدبي ، ولذلك غطت شهرتها ما سواها من الشعر الجاهلي ، وصار لقائليها من الذكر والشهرة ما لم يظفر به غيرهم من الشعراء ، واتخذها الأدباء والشعراء – بعد عصرها – قدوة يحاكونها حين ينظمون متأثرين بأسلوبها ولغتها وطريقة نظمها وتسلسل أفكارها ، محاولين أن يبلغوا في قصائدهم مبلغ أولئك الجاهليين في معلقاتهم .
ومن الراجح أن حمادا الراوية المتوفى(١٥٥ه أو١٥٦ه) هو الذي اختار هذه القصائد ، وهذا الاختيار يعني أن ذوق حماد هو الذي تحكم في ذلك ولابد أن تكون في ذهن حماد وهو ينتقي هذا الانتقاء أحكام ومقاييس لمواصفات معينة ، تتعلق بشخصية المختار لهم وطبيعة تكوين القصيدة والبناء الذي قامت عليه والطريقة التي استخدمت في ذلك والموضوعات المتداخلة التي تعرضت لها وربما أحكام أخرى لم نهتد اليها . ان هذه المسائل لها دورها في تحديد هذه القصائد . ولعل هذا الاختيار فرضته أحوال معينة واستلزمته طوارئ تعليمية أو تدريسية خاصة أهابت به أن يصنع هذا الصنيع . وأخيرا وقع اختياره على قصائد امرئ القيس وزهير بن أبي سلمى ، وطرفة بن العبد ، ولبيد بن ربيعة العامري وعمرو بن كلثوم التغلبي ، والحارث بن حلزة اليشكري وعنترة . واذا حاولنا أن نتابع قضية اختيار الشعراء أو تحديدهم كما ورد في كتب الاختيار أو الشروح وجدنا القائمة تتبدل ، فابن الأنباري المتوفى (٣٢٨ه) راوية والده المتوفى (٣٠٥ه) صاحب شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات يجعلهم سبعة شعراء تتطابق قائمته مع قائمة حماد . أما المفضل الضبي المتوفى (١٦٨ه) فيجعلهم سبعة أيضا ولكنه يسقط الحارث بن حلزة وعنترة ويستبدلهما بالنابغة الذبياني والأعشى . ثم يأتي ابن النحاس المتوفى (٣٣٨) فجعلهم تسعة جمعا بين روايتي حماد والمفضل الضبي . أما أبو زيد القرشي (من رجال القرن الرابع الهجري) فيجعلهم سبعة على وفق رواية المفضل . في حين أن الزوزني المتوفى(٤٨٦) يجعلهم سبعة أيضا ولكن مطابقة لرواية حماد . ويختتم هذه القوائم التبريزي المتوفى(٥٠٢) بالقصائد العشر بعد أن يضيف الى التسعة المشهورين عبيد بن الأبرص . ومن الغرابة أن يحشر ابن خلدون علقمة بن عبدة بين هؤلاء ليصبح أصحاب المعلقات أحد عشر رجلا .

قضية التعليق :

ان أقدم الرواة الذين أشاروا الى التعليق صراحة هو ابن الكلبي (ت ٢٠٤) فقد قال : ((أول شعر علق في الجاهلية شعر امرئ القيس ، علق على ركن من أركان الكعبة أيام الموسم حتى نظر اليه ثم أحدر ، فعلقت الشعراء بعده ، وكان ذلك فخرا للعرب في الجاهلية ، وعدوا من علق شعره سبعة نفر)) ، وقال بالتعليق كذلك ابن عبد ربه (ت٣٢٧) فقد قال : ((لقد بلغ من كلف العرب به وتفضيلها له أن عمدت الى سبع قصائد تخيرتها من الشعر القديم فكتبتها بماء الذهب في القباطي المدرجة ، وعلقتها بين أستار الكعبة)) ونص على التعليق أيضا ابن رشيق القيرواني (ت٤٦٣) فقال : ((وكانت المعلقات تسمى المذهبات ، وذلك لأنها اختيرت من سائر الشعر فكتبت في القباطي بماء الذهب وعلقت على الكعبة ....)) وتابعهم بعد ذلك ابن خلدون (ت٨٠٨) ، وفد شرح البغدادي (ت١٠٩٣) معنى المعلقة بأنه الشعر المكتوب المعلق على ركن من أركان الكعبة .

دحض دعوى التعليق :

هناك إشارات تدعو الدارس الى عدم الأخذ بدعوى التعليق ، من هذه الإشارات :

- **الاختلاف في العدد والاختلاف في تحديد الشعراء :** ان هذه القصائد لو كانت معلقة حقا ، ولو كان الناس حقا مطلعين عليها ، وكانوا يعرفون حقا مواضع تعليقها وأماكنها المحددة في الكعبة لما وجدنا هذا الاختلاف في العدد والاختلاف في تحديد الشعراء .
- **شروح القصائد :** ان شروح القصائد لاتنص على هذه التسمية مطلقا ، فشرح ابن الأنباري هو شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات ، وشرح ابن النحاس هو شرح القصائد التسع المشهورات ، وشرح الزوزني هو شرح القصائد السبع (وقد ثبت هذا العنوان في مقدمة الكتاب لا في عنوانه) ، وشرح التيريزي هو شرح القصائد العشر .
- **كتب الأقدمين من الرواة :** لم يشر الرواة الأقدمون من مثل ابن سلام الجمحي والجاحظ وابن قتيبة والمبرد وهم الطبقة الأولى التي أرخت لحركة الأدب ، والطبقة الأولى التي ترجمت لهؤلاء الشعراء ، في مؤلفاتهم الى هذه التسمية ، فضلا عن أن أديبا من أدباء القرن الثالث الهجري وهو أبو بكر محمد بن داود الأصفهاني (ت ٢٩٧) يذكر لنا في كتاب (الزهرة) بعد أن يستشهد بأبيات من مطولة الحارث بن حلزة اذ يقول : ((وهذه القصيدة كانت من السبع الجارية على ألسنة الصبيان والمؤدبين فلم يمنع ذلك من ذكرها للأدباء والمتأدبين)) .
- **الكتابة :** من الثابت والمسلم به أن الكتابة كانت منتشرة في العصر الجاهلي ومعروفة لديهم ، ففي الشعر الجاهلي والقرآن الكريم والكتب إشارات كثيرة تدل على معرفة الجاهليين بها واستخدامهم لها فقد استخدموها في العقود والبيوع والمواثيق والمعاهدات والرسائل ، ولكن ليس من الثابت لدينا أن العرب الجاهليين استخدموها في حفظ أشعارهم ، واذا كانت هناك إشارات على استخدامهم للكتابة في حفظ هذه الأشعار فهي إشارات ضعيفة لا تصمد أمام الحجج العلمية القادرة على تفنيدها .
- **مضمون معلقتي عمرو بن كلثوم والحارث بن حلزة :** تنطوي كل معلقة من هاتين المعلقتين على ملحمة رائعة من ملاحم الفخر ، وجمهرة كبيرة من المفاخر يسجلها لبني تغلب عمرو ، ويمنحها لبني بكر الحارث ، وهما في كل مجموعة ينتقصان من القبيلة الأخرى ويقللان من شأنها حتى أصبحت قضيتهما مسألة تتجاوب أحداثها جوانب الجزيرة . فاذا جوزنا لأنفسنا تعليق هاتين القصيدتين على أستار الكعبة فما هي الأحداث المنتظرة ؟ وكيف نستطيع أن نسوغ لأنفسنا دخول أبناء بكر أو تغلب للطواف في الكعبة وكل واحد منهما ينظر الى شتيمته معلقة ، والتشهير يأخذ مكانه في موضع يشخص اليه كل بصر ، ويتطلع اليه كل فؤاد .. ؟ ولم تحدثنا الأخبار بأن خصومة قامت أو صراعا احتدم ، أو يوما سجل في الكعبة ، والأخبار تروي لنا أن حربا دامت أربعين سنة كانت ناقة البسوس وراءها ، وحربا أخرى استمرت أربعين سنة كانت داحس والغبراء من أسبابها ؟؟ أما كان الأولى أن تثار الحرب بسبب تعليق الشتائم وهو أوفق الأسباب ؟؟ التأريخ والأخبار سكت أمام ذلك .
- **كتب التأريخ والسيرة :** إن هذه الكتب التي كتبت كل دقيقة من دقائق الحياة الجاهلية والإسلامية ودونت المغازي والفتوح وذكرت كل ما يمكن أن يسجل وهي تتابع حياة الرسول الكريم (ص) ولكنها لاتذكر وهي تؤرخ لفتح مكة ما يمكن أن يؤكد أي أمر يشير الى أن المسلمين وجدوا كتابة لقصيدة أو أبيات من شعر وهم يحيطون بالكعبة ويعلنون للناس ، الأمان والمؤاخاة .

- **الفارق الزمني :** إن بين حماد الراوية (١٥٥ه أو١٥٦ه) جامع هذه القصائد وبين ابن الكلبي (٢٠٤ه أو ٢٠٦ه) صاحب أول إشارة لدعوى التعليق ما يقارب خمسين سنة ، فلو كانت هذه التسمية رائجة ومشهورة بين العامة لذكرها حماد وهو يقوم بجمعها ، ولكن الراجح والمؤكد بين الرواة القدماء والدارسين المحدثين أن حمادا سماها (القصائد المشهورات) حسب ما روي عن أبي جعفر النحاس من أنه قال : ((إن حمادا الراوية لما رآى زهد الناس في حفظ الشعر جمع هذه السبع وحضهم عليها ، وقال لهم هذه المشهورات فسميت القصائد المشهورات لهذا)) .

هذا ولهذه القصائد أسماء كثيرة (غير المعلقات) تفيد معنى النفاسة والجودة والإختيار والتعليق والعدد ، فمن هذه الأسماء : السبع الطوال والمذهبات والسموط والقصائد المشهورة ، والمعلقات هو الأسم الذي كانت له الغلبة الأخيرة والشيوع في العصور المتأخرة .

وللتعليق معان وتفسيرات متعددة منها : أن لفظ التعليق متأت من تسمية المعلقات بالسموط ، والسمط : العقد النفيس الذي يحلى به الجيد ويعلق في العنق أو أن المعلقات سميت كذلك لأنها كتبت وعلقت في سقف أو جدار ، أو أنها أخذت من قول الملك إذا استجاد قصيدة لشاعر : (علقوا لنا هذه) أي أكتبوها وثبتوها في الخزائن ، أو أن هذه القصائد لجودتها وامتيازها تعلق في الأذهان ، أن الإنسان يعلق بها ، أو أن لها صلة بالعلق بمعنى الثمين النفيس ... وما الى ذلك .

المفضليات : وهي مجموعة قصائد ومقطوعات شعرية اختارها المفضل بن محمد الضبي – رأس علماء الكوفة الموثقين في عصره – وتحتوي على مائة وست وعشرون قصيدة ومقطعة أضيف اليها أربعة قصائد وجدت في بعض النسخ لتصبح مائة وثلاثون ، وهي موزعة على سبعة وستين شاعرا ، منهم ستة شعراء إسلاميون ، وأربعة عشر مخضرمون ، والباقون وهم سبعة وأربعون شاعرا جاهليون . ويذكر أن السبب المباشر في اختيار هذه القصائد هو التكليف الرسمي الذي جاء على لسان الخليفة العباسي المنصور حين طلب من المفضل الضبي أن يكون مؤدبا لإبنه المهدي ، وقد تختفي وراء ذلك رغبة حقيقية كانت تعتمل في نفس المفضل وهو يصفي الشعر مما علق به ، أما من حيث المنهج ، فيبدو أنها كانت غير منظمة وفق منهج واضح ، وإنما كانت تأتي على وفق ما يقع عليه ذوقه ، وعلى وفق ما يتبادر الى ذهنه من نصوص . ولعله كان يجد فيها إستشهادا مقبولا ، أو نصا معبرا أو قصيدة شعرية تأخذ مكانتها في نفسه أو نفوس معاصريه. ولكنه كان يسعى وكما طلب اليه أن تكون النماذج الشعرية لها طابع التأديب الذي يحمل النفس على الإتصاف بالخلق الرفيع والتمثل بالشجاعة الكريمة ، والتحلي بالمثل العربية الأصيلة ، الى جانب كونها من أجود ما قاله الشعراء . ومن الطبيعي أن تلمع هذه الصفات في بعض الإختيارات ، ولكنها لم تكن واضحة المعالم في بعضها الآخر الذي يغلب عليه الحديث عن أمور لاتمت الى الأهداف التأديبية بصلة ، ولكنه يصور جوانب من الحياة الجاهلية ، وفيه أساليب شعرية ويضم ألفاظا وتراكيب تمثل العصر الجاهلي ويأخذ شعراؤها مكانتهم في الواقع الشعري لتلك الفترة .

الأصمعيات : وهي مجموعة قصائد ومقطوعات شعرية اختارها أبو سعيد عبد الملك بن قريب الأصمعي وهو من رواة البصرة الموثقين ، ويبلغ عدد قصائدها ومقطعاتها اثنتين وتسعين ، وهي موزعة على واحد وسبعين شاعرا ، ، منهم سبعة إسلاميون ، وأربعة عشر مخضرمون ، وأربعة وأربعون جاهليون ، وسبعة مجهولون ليست لهم في المظان الأدبية تراجم تكشف عن عصرهم . ومما يؤخذ على الأصمعيات أن نصف إختياراتها مقطعات وإن أغلب شعرائها من المغمورين المقلين الذين لم تعرف لأكثرهم دواوين ، كما إن الأصمعي لم يرو كثيرا من القصائد

كاملة ، بل إكتفى بمختارات منها ، فضلا عن قلة غريبها بالقياس الى المفضليات ، ولعل هذه الظواهر قد حملت الرواة على الأنصراف عنها ، وعدم تعلقهم بشرحها ، لأنهم لم يجدوا فيها مجالا لإظهار براعتهم اللغوية وقدراتهم التي برزت بشكل واضح في شروح القصائد الطوال والمفضليات .

حماسة أبي تمام : وهي مقطوعات شعرية لشعراء جاهليين واسلاميين وعباسيين ، إختارها أبو تمام (ت ٢٣١ه) من الكتب والدواوين والمجاميع ، وقلما روى فيها قصائد كاملة ، وقد بني إختيار ما فيها من شعر على أبواب المعاني ، فهي موزعة على عشرة أبواب : فباب لشعر الحماسة وهو أول الأبواب وأكبرها وبه سميت المجموعة كلها ،وباب للمراثي ، وباب للأدب ، وباب للنسيب ، وباب للهجاء ، وباب للأضياف والمديح ، وباب للصفات ، وباب للسير والنعاس ، وباب للملح ، وباب لمذمة النساء ، وقيمتها أدبية أكثر منها تأريخية ، إذ لايعرفنا أبو تمام بالمصادر التي أخذ منها . لقد استطاع كتاب الحماسة أن يأخذ مكانته في نفوس القدماء والمحدثين فانتزع إعجابهم ، ووقع عليه إجماعهم بسبب الإختيار الموفق الذي عمد فيه الى الأشعار التي يحتج بها في اللغات والعربية والمعاني ، وقد دعت هذه الدوافع الشراح واللغويين الى العناية بها وأن يتصدى جمهرة منهم بالتفسير والتوضيح والإعراب ، وقد حفظت لنا المصادر عشرين شارحا شرحوها ووقفوا عند غريبها وفصلوا في إعراب أبياتها ، ولكن الذي طبع من هذه الشروح شرحان أحدهما للمرزوقي (ت ٤٢١ه) والآخر للتبريزي (ت ٥٠٢ه) ، ويعد شرح المرزوقي من أكبر الشروح التي وصلت الينا ، وأكثرها عناية بمعاني الشعر وبالنقد والموازنة ، على حين لم تفته العناية باللغة والإشتقاق ، ويمتاز بمقدمته النفيسة التي تعد وثيقة هامة في تأريخ النقد الأدبي ، وقد أخذ على أبي تمام أنه كان يغير النصوص ليستقيم له الربط بين الأبيات ويبدل بعض المعاني ليستر يعض ما يشينها ، وقد أكد المرزوقي هذه الظاهرة في شرحه .

حماسة البحتري : وهي مقطوعات شعرية إختارها البحتري (ت ٢٨٤ه) ، وهي موزعة على مائة وأربعة وسبعين بابا ، وأكثر أبوابها في نزعات خلقية ، ولم يعن القدماء بشرحها ، ولعل دراسة الجوانب التي وقف عليها البحتري تمثل التوجه النفسي الذي كان يعتريه وهو ينتقي مقطوعاتها ويختار أبياتها .